بسم الله الرحمن الرحيم

هذه مراجعة سريعة مختصرة لكتاب خصائص التصور الإسلامي

نبذة عن المؤلف

سيد قطب أو صاحب الظلال كما هو مشهور عنه بكتابه "في ظلال القرآن"، ما زال اسمه يزلزل عروش الطغاة حتى بعد استشهاده – تقبله الله- بخمسٍ وخمسين سنة، وهو أحد أكثر الشخصيات المؤثرة والبارزة في الحركات الإسلامية، إذ دعا إلى نبذ الجاهلية، والمفاصلة بين قيم المسلم وقيم الجاهلية، وما يُميِّز سيد – رحمه الله – في مؤلفاته ليس فقط بث الحياة والروح بين المسلمين، أو جعلك تتعايش مع كلماته كأنما هي حية تنطق بآلام الواقع البئيس، بل إنه كان يصوغ ذلك بأسلوب أدبي شيق ينفذ إلى القلوب، ولا يتمالك المرء نفسه أمام الانبهار بالمعاني التي يستقيها من آيات القرآن، وطريقة سيد – رحمه الله – في صياغتها، وقد كان ذلك بارزًا جليًا في كل مؤلفاته.

كان المؤلف لا يهاب الطغاة، ولا يخش من قول كلمة الحق رغم الأذى والتعذيب، وقد دفع حياته ثمنًا ل"لا إله إلا الله"، ولم يتوقف تأثير سيد قطب حتى بعد استشهاده، وإنما ظهر تأثُّر الحركات الإسلامية الجهادية في مصر بفكره والتي أطاحت لاحقًا بالسادات، وكذلك كان اعتماد المجاهدين في أفغانستان في حرب السوفيت على كتابات سيد قطب كما أوضح ذلك الشيخ أبو مصعب السوري، وما زلنا حتى اليوم نتعلم من كتابات سيد قطب جزاه الله عنَّا خير الجزاء، وتقبله في الشهداء.

كلمة فى المنهج

يتحدث سيد في بداية الكتاب عن ضرورة تحديد خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، إذ لا بد للمسلم من تفسير شامل للوجود. لا بد للمسلم من أن يعرف علاقته بالكون والحياة وبالله معرفةً صحيحةً مستقاة من المنهج الرباني لا من أهواء وشهوات البشر، لأنه يترتب على ذلك تصور اعتقادي ونظام حياة منبثق عن هذا التصور.

ويقدم القرآن الكريم هذا التصور الشامل للإنسان الذي يقيه من الشقاء والتخبط والضلال، وبهذا التصور تفاعلت جماعة المسلمين الأولى مع الواقع وساحت في الأرض تدعو إلى دين الله، وقد كانوا الأقرب لفهم هذا القرآن لأنهم عملوا به في أرض الواقع، إذ لا يفصح القرآن عن كنوزه وأسراره إلا لمن خاض به معترك الحياة وجاهد في سبيل الله، وعاش أجواء القرآن كما نزل على الجماعة الأولى.

يُنَبِّهُ الكاتب بعد ذلك إلى أن الغرض من معرفة خصائص التصور الإسلامي ليس مجرد المعرفة الباردة، وإنما الحركة والعمل في أرض الواقع، وليس الغرض منه مجرد صب قوالب ذهنية كما يفعل أهل الكلام والمتفلسفة، بل إنه تصور اعتقادي يؤثر في وجدان الإنسان ويحركه صوب سعادة الدارين.

ثم تطرَّق الكاتب بعد ذلك إلى سبب الخلل الذي حدث في عقيدة المسلمين الناشئ عن دخول بعض التصورات الفلسفية المستمدة من الفلسفة اليونانية، وإدخالها في العقيدة الإسلامية، وجعلها هي الأصل للرد على بعض الفرق الكلامية، إلا أن ذلك أفقد عقيدة الإسلام صفاءها ورونقها الذي اتسمت به دومًا، إذ كان منشأ التصور الإسلامي دائمًا القرآن والسنة، لا فلسفة المتفلسفة، ولا بكلام المتكلمين، ما أثر على التصور الاعتقادي للمسلمين، وانعكس ذلك بالطبع في حياتهم.

بعد ذلك تحدَّث سيد قطب عن مناهج الفكر الغربي المستقاة من التصورات الإغريقية، وكذلك عداء الكنيسة التي بطشت بالأوروبيين في القرون الوسطى، ما أدى بعد ذلك إلى عداء الدين بشكلٍ كلي، وقد كان ذلك الحديث عن النصرانية للمقابلة بينها وبين التصور الاعتقادي الإسلامي، وكيف أن النصرانية مبنية على تلبيسات وأهواء من خلط للعقائد الوثنية بالعقيدة النصرانية لخلق مكاسب سياسية للإمبراطورية الرومانية ومنع تفككها ما قد دمر صفاء عقيدة المسيح التي جاء بها، واستمر الانحدار إلى أن وصلت أوروبا إلى عداء الدين بشكلٍ كامل.

ثُمَّ نبَّه سيد – رحمه الله – إلى أننا نستمد خصائص التصور الإسلامي من القرآن ذلك النبع الصافي لا من القوالب الفلسفية أو أي مصدر آخر، لكن ينبغي قبل التلقي من القرآن أن نفرغ عقولنا وقلوبنا من كل تصور فاسد أو معارض، وكذلك من كل رواسب الجاهليات، لإنشاء أنفس قائمة بأمر الله، لا قائمة على الشهوات والأهواء.

تيه وركام

بعد ذلك تحدَّث الكاتب في فصل "تيه وركام" على أن هناك حقائق لازمة للإنسان في كل زمان ومكان، وأن هناك تلازم وثيق بين التصور الاعتقادي والنظام الاجتماعي، وقد ضرب مثالًا على التيه والركام بديانة بني إسرائيل المليئة بالتصورات الوثنية والاعتقادات الباطلة المنحرفة، وكذلك النصرانية، إذ كانت البشرية تتخبط في التيه والركام بعيدًا عن الوحي الرباني الذي حرفوه.

ولا يختلف حال العرب قبل الإسلام عن ذلك كثيرًا إذ كانوا يعبدون الأوثان من دون الله، وقد نتج عن كل هذا التيه والركام تصورات اعتقادية فاسدة، فأنشأت واقعًا أشد فسادًا، ومن ثمَّ كان الإسلام لمواجهة هذا التيه والركام والصعود بالبشرية إلى عليائها التي خلقها الله عز وجل لها.

الخاصية الأولى: الربانية

ينتقل سيد قطب بعد عرض الضلالات القديمة إلى خصائص التصور الإسلامي، تلك الخصائص التي تُعدُّ ركيزة أساسية لكل مسلم، وأولها خاصية الربانية التي هي مصدر التصورات كلها، إذ إن أهم ما يميز التصور الإسلامي أنه موحى به من عند الله، ولم يطرأ عليه الانحرافات التي أصابت النصرانية أو اليهودية، وجلُّ التصور الإسلامي حول قضية الألوهية وإفراد الله عز وجل بها، وعبودية الإنسان لله، وتسخير الكون لهذا الإنسان.

وما يميز التصور الإسلامي عن أي تصور آخر أنه صادر من الله للإنسان، ليس من صنع الإنسان، ويقتصر دور الإنسان على التلقي والإدراك، والتطبيق العملي لهذا التصور في أرض الواقع.

أما التصورات البشرية أو المستمدة من قوانين البشر، فهي تُعبِّد الإنسان للإنسان لا لله، أما التصور الإسلامي يجعل البشر سواسية لا يخضعون إلا لله، ولا يعبدون إلا الله، ومن هنا كانت حاجة البشرية إلى دين يحرر الإنسان ويجعله عبدًا لله لا لأحد سواه.

الخاصية الثانية: الثبات

والخاصية الثانية هي الثبات، وهي خاصية أساسية في التصور الإسلامي وهي تُعرف بالحركة داخل إطار ثابت حول محور ثابت، فالإسلام به حقائق ثابتة، مثل: تسخير الكون للإنسان، وأن الإنسان عبد لله على الدوام، وأنه لا يستحق أحد الألوهية إلا الله، وأن الدنيا دار ابتلاء، وأن الجزاء في دار الآخرة، وأن الإنسان مستخلف في الأرض بأمر الله لتنفيذ مراد الله. كل هذه من الثوابت التي لا تتغير في التصور الإسلامي.

فالبعد عن التصور الإسلامي يجعل الإنسان عرضة للتغيرات والتقلبات، وتقضي على إنسانيته، ويفقد دوره الذي خُلق من أجله وهو عبودية الله والخلافة في الأرض بمنهج الله، ولا يرى إلا الأرض التي يعيش عليها، فيخضع لشهواته وأهوائه التي تتقلب به من حال إلى حال، ويشرد إلى التيه، وهذا هو مسلك الغرب، وقد ذكر الكاتب – رحمه الله- بعد ذلك أمثلة على هذا التغير والتقلب كما في نظريات داروين وماركس، وغيرها من النظريات التي اعتمد عليها الغرب في تصوره الاعتقادي وأوضاعه الاجتماعية.

الخاصية الثالثة:الشمول

أمَّا الخاصية الثالثة فهي الشمول، فإن تفكير البشر تفكير جزئي ووقتي، ما يجعله ناقصًا مضطربًا، أمَّا حين يتولى الله سبحانه وتعالى ذلك، فإن التصور الاعتقادي – والفعل الحيوي المنبثق عنه – يجيئان خاليان من القصور الذي يعتري النفس البشرية، ومن ثَمَّ يكون شاملًا لكل مناحي الحياة، وشاملًا لكل الأزمان كذلك.

تتمثل خاصية الشمول في رد هذا الوجود كله إلى إرادة الله الخالق لكل شيء، كما أنها تمنح القلب راحةً وطمأنينةً. أيضًا يتحدَّث عن حقيقة الألوهية، والعبودية، ويقوم هذا التصور على تعريف الناس بربهم تعريفًا دقيقًا شاملًا، وبخصائص ألوهيته.

ومن أهم مميزات خاصية الشمول:

١- أنها مريحة للفطرة البشرية، فهو لا يكلفها عنتًا.
٢- يعصمها من الاتجاه لغير الله في أي شأن وفي أي لحظة، أو قبول أي سيطرة تستعلي عليها بغير سلطان الله، في أي جانب من جوانب الحياة، فالأمر والهيمنة والسلطان لله وحده في الدنيا والآخرة.

الخاصية الرابعة: التوازن

والخاصية الرابعة من خصائص الصور الإسلامي: التوازن، وهو من أبرز الخصائص، فهناك توازن بين الجانب الذي يتلقاه الإنسان ويسلم به وينتهي عمله عند التسليم، وبين الجانب الذي يتلقاه ليدركه ويبحث حججه وبراهينه، فالفطرة البشرية أودعها الله الارتياح للمجهول والارتياح للمعلوم.

والتوازن بين طلاقة المشيئة الإلهية وثبات السنن الكونية، والتوازن بين مجال المشيئة الإلهية المطلقة والمشيئة الإنسانية المحدودة، فالاعتقاد بطلاقة المشيئة الإلهية وتفردها بالفاعلية الحقيقية من وراء الأسباب الظاهرة، وأن نشاط الإنسان احد هذه الأسباب الظاهر، يخلق التوازن في الاعتقاد.

والتوازن كذلك بين عبودية الإنسان المطلقة لله، مقام الإنسان الكريم في الكون، والتوازن بين مصادر المعرفة من الوحي والنص، ومن الكون والحياة، والتوازن بين فاعلية الإنسان وفاعلية الكون، فالإنسان هو الأكرم وهو الأكثر فعالية وإيجابية، وهو الذي سُخِّر له الكون.

الخاصية الخامسة: الإيجابية

والخاصية الخامسة من خصائص التصور الإسلامي: الإيجابية في علاقة الله سبحانه وتعالى بالكون والحياة والإنسان، فالصفات الإلهية في التصور الإسلامي ليست صفات سلبية.

فالإنسان يتعامل مع إله موجود، خالق، مدبر، مهيمن، قادر، فعال لما يريد، ولا يتم شيء في الكون إلا بإرادته، فهذه الإيجابية في علاقة الله سبحانه وتعالى بخلائقه كلها، هي مفرق الطريق بين العقيدة الجدية المؤثرة، والعقيدة الصورية السلبية.

فالتصور الإسلامي ليس تصورًا سلبيًا يعيش في عالم الضمير، قانعًا بوجوده هناك في صورة مثالية نظرية! أو تصوفية روحانية! إنما هو تصميم لواقع مطلوب إنشاؤه وفق هذا التصميم، وطالما هذا الواقع لم يوجد، فلا قيمة لذلك التصميم في ذاته، إلا باعتباره حافًا لا يهدأ لتحقيق ذاته.

الخاصية السادسة: الواقعية

وأمَّا الخاصية السادسة التي ذكرها سيد – رحمه الله – فهي الواقعية، فالإسلام يضع منهجًا واقعيًا يضع في الاعتبار فطرة الإنسان، وفضائله ورذائله، وقوته وضعفه، فلا يسوء ظنه بهذا الكائن، ولا يحتقر دوره في الأرض، ولا يهدر قيمته في صورة ما من صور حياته، كما لا يرفع هذا الإنسان إلى مقام الألوهية، ولا يتصوره ملكًا نورانيًا لا يتلبس بمقتضيات التكوين المادي.

فالإسلام دين الواقع. دين الحياة. دين للحركة. دين تطابق تكاليفه فطرة هذا الإنسان.

المقوم الأول من مقومات التصور الإسلامي التوحيد

وبعد الانتهاء من الخصائص، يذكر الكاتب أول مقوم من مقومات التصور الإسلامي ألا وهو التوحيد، فهناك ألوهية يتفرد بها الله عز وجل، وعبودية يشترك فيها كل ما عداه ومن عداه.

فالله واحد في ذاته، وهو خالق كل شيء، وهو مالك كل شيء، وهو الرازق لكل ما خلق، وهو مالك كل شيء، ومصرف كل شيء، وحافظ كل شيء، وهو صاحب السلطان المسيطر القاهر على كل شيء، وتفرده كل خلائقه سبحانه بالعبودية والطاعة والقنوت.

ومن مقتضيات توحيد الألوهية أن يعتقد المسلم كما أنه لا معبود إلا الله، فيتجه له وحده بالشعائر التعبدية، فكذلك لا حاكم إلا الله، ولا مشرع إلا الله، وألا منظم لحياة البشر وعلاقاتهم إلا الله، فيتلقى من الله وحده التوجيه والتشريع، ومنهج الحياة.

ثم ذكر سيد – رحمه الله – في نهاية كتابه أن كل الأنظمة البشرية تجعل التشريع والحاكمية فيها للبشر، فيقعون في عبودية العباد، وأن الإسلام وحده هو الذي يحرر الإنسان من العبودية للعباد.

وأن التوحيد هو ما يملك أن يقدمه المسلمون للبشرية اليوم في ظل هذا التيه الذي تعانيه كل البشرية على السواء بعيدًا عن المنهج الرباني.

وفي النهاية أحبُ أن أقول: إن هذا الكتاب هو عمدة في وضع أسس التصور الاعتقادي لأي مسلم، فكم نرى اليوم من تخبط في أفكار المسلمين منشؤه فصل العقيدة تمامًا عن الحياة، وفي هذا الكتاب قد أوضح الكاتب – رحمه الله – مدى ارتباط العقيدة الإسلامية بالحياة، وأنها إنما جاءت لتحكم واقع الناس، لا لتنزوي في المساجد والبيوت فقط، وأيضًا ألقى الكاتب الضوء على قضية الألوهية والعبودية، وهي أساسيات وركائز في تصور أي مسلم، فكثير من المسلمين اليوم لا يفقه معنى عبوديته لله، ولا معنى ألوهية الله وإنا لله وإنا إليه راجعون، وختامًا أنصح أي مسلم حريص على دينه بفقه خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، عسى الله أن يرزقنا وإياكم الثبات حتى الممات، والحمد لله رب العالمين.